

اليمن وآثارها

الدكتور أحمد فخرى

١ - مفرمة :

إذا جاء ذكر الحضارة العربية أو أثر جزيرة العرب في التقدم الإنساني ، ينصرف ذهن أكثر الناس إلى الوقت الذي ظهر فيه نور الإسلام فلأ قلوب العرب ، ووجد بينهم ، فخرجوا يفتحون الأمصار ، وأنشأوا إمبراطوريتهم العظيمة .

ولكن قبل أن يولد النبي العربي صلى الله عليه وسلم بأكثر من ١٥٠٠ عام كانت هناك في بلاد العرب حضارة عظيمة ، لا تقل عن حضارات بلاد الشرق الأخرى ، وما زالت بقايا هذه الحضارة قائمة في بعض جهات اليمن ؛ فعابد الممينيين وآثارهم الأخرى التي بنيت في القرن الثامن قبل الميلاد ما زالت تطاول السماء بأسوارها الضخمة ، وأعمدتها المرتفعة ، كما نقش سكان اليمن القدماء على جدران بعض معابدهم وعلى لوحات من الحجر والنحاس بعض أخبارهم ، فأصبحنا نعرف الكثير عنهم . وليس القرن الثامن قبل ميلاد المسيح عليه السلام هو مبدأ ظهور الحضارة في اليمن ، ولكنه تاريخ عدد معروف ، ولا شك في أن بدء ازدهار الحضارة في تلك البلاد يعود إلى عصر أقدم من هذا العصر ببضع مئات من السنين ، أو أكثر من ذلك ، كما أن صلة اليمن بالبلاد المجاورة لها تعود إلى آلاف السنين ، ولا يخالفنا شك في أن دراسة آثار اليمن بمد حفرة مناطقها الأثرية ، سيليقي كثيراً من الضوء ، ليس على تاريخ الجزيرة العربية أو الجنس السامي فحسب ، بل ستوضح لنا الكثير عن صلة الحضارات القديمة بعضها ببعض ، والدور الذي لعبه قدماء الممينيين في تاريخ حضارة الشرق .

٢ - أقدم الصلوات بين اليمن وغيرها من البلاد :

نعرف من الآثار المصرية أن المصريين القدماء كانوا يقومون منذ فجر تاريخهم برحلات بحرية في البحر الأحمر لإحضار البخور وبعض أشياء أخرى من بلاد بونت ، وهي البلاد الواقعة حول بونغاز باب المندب ، على الشاطئين الآسيوي والأفريقي ، أي بلاد الصومال وجنوب اليمن وحضرموت .

وقد كثرت هذه الرحلات منذ ألقى عام قبل الميلاد ، واستمرت حتى آخر أيام الحضارة المصرية ، وأشهر هذه الرحلات هي الأسطول الكبير الذي أرسلته الملكة « حتشبسوت » في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وعاد محملاً بخيرات تلك البلاد ، كما عاد أيضاً ومعه أشجار البخور . لغرسها في حدائق معبد الإله آمون . وقد نقش الفنانون المصريون على جدران معبد هذه الملكة في البر الغربي بالأقصر ، وهو المعروف باسم معبد الدير البحري تفاصيل هذه الحملة وخيرات بلاد بونت ، ورسوموا بعض بيوتها وأهلها وحيواناتها وأسماك البحر الأحمر . ومما يجدر ذكره أن الصلات التجارية بين مصر واليمن لم تقتصر على مدن الشاطئ ، بل وجدت طريقها إلى داخل البلاد . وقد رأيت في رحلتي إلى اليمن في العام الماضي بعض الآثار المصرية ، وأهمها جمران من عهد الملك « امينوفيس الثالث » من الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، في أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبعض آثار مصرية أخرى ، يرجع تاريخها إلى القرن السادس من قبل الميلاد . ولكن هناك ما هو أهم من هذه الصلات التجارية . ولقد عرف المصريون أن بعض أجدادهم أتوا من طريق قنط القصير ، كما أنهم كانوا يعلمون أن بعض آلهتهم وخاصة الإله حورس أتاهم من المشرق ، وأحياناً يقولون من الجنوب ، وليس الإله حورس هو الإله الوحيد الذي جعلوا بينه وبين بلاد العرب صلة بل إن هناك آلهة أخرى أشهرها الإله « بس » الذي كانوا يذكرون دائماً نسبته إلى بلاد بونت .

وكما اتصلت اليمن بمصر فإنها اتصلت بمهد الحضارة الآخر في العراق ، فقد ورد على آثار السوميريين منذ عام ٣٤٠٠ ق م . إشارات إلى الصلة بينهم وبين الجزيرة العربية ، وفي أحبار الملك « نيجلات باسر الثالث » حوالي عام ٧٣٦ ق م . أنه أخذ من أهل سبأ جزية من الذهب والجمال والبخور .

أما صلة اليمن بالشاطئ الأفريقي فلا بد أنها بدأت منذ أقدم العصور ، وتركت القبائل اليمنية على الشاطئ الأفريقي ، وأحياناً داخل البلاد ، أترآ لا يمحى ، من حضارتها وثقافتها منذ آلاف السنين إلى اليوم ، وأهل أكسيوم القدماء ليسوا في الأصل إلا بعض من هاجر من اليمن إلى بلاد الحبشة .

٣ — ذكر حضارة اليمن في الكتب المقدسة :

وتعرف من القرآن الكريم ، ومن التوراة ، الذي البعيد الذي وصلت إليه حضارة اليمن ، وتكفي الإشارة إلى قصة سيدنا سليمان وملكه سبأ ووصف مملكته وعزتها ، لتذكر

ما كانت عليه اليمن حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، كما جاء ذكر ممالك معين وسبأ فى التوراة ، فى كتب الأنبياء ، مثل أرميا وحزقيال وأيوب ، تدرك من بين هذه الإشارات ما كانت عليه تلك البلاد من حضارة ، وما كان فى أيدى أبنائها من سيطرة على تجارة الشرق القديم ، وذلك قبل مجىء الإسلام بأكثر من ١٢٠٠ سنة .

٤ — اليونان والرومان :

ولم تخل كتب مؤرخى اليونان والرومان من ذكر الجزيرة العربية وذكر المعينيين والسبئيين والحيريين ، وذكر تجارة البخور والعطور التى كانت فى أيدى تجار اليمن ، وهى التجارة التى كانت تدر على أصحابها أرباحا توازى ثمنها مائة مرة ، ولم يكن مسموحا للسفن الهندية أن تجتاز ميناء عدن ، فكانت تضطر إلى أن تبيع حوتها إلى تجار اليمن الذين كانوا ينقلونها بقوافلهم إلى أسواق الشام مجتازين الجزيرة العربية ، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، ومن غزة تأخذ طريقها شرقا إلى بابل ، أو غربا إلى مصر ومنها إلى أوروبا وتعود قوافل اليمنيين من الشام محملة بكل ما يجدونه فى أسواقها ، فيبيعونه مرة أخرى إلى سكان الجزيرة ، أو إلى التجار الهنود .

وأراد الرومان أن يخضعوا اليمن لسلطانهم ، ليفوزوا بالسيطرة على هذا الطريق التجارى الهام ، فأرسلوا فى عام ٢٤ قبل الميلاد حملة تحت إمرة القائد « أليوس جالوس » حاكمهم فى مصر ، فخرجت الحملة يساعدها الأنباط حلفاء الرومان ، يقصدون غزو اليمن ، فلاقى الجيش أهوالا كثيرة ، ثم وصل بعد ستة شهور إلى نجران . ولكن قبل أن يصل مأرب التقى باليمنيين فى معركة قضت قضاء تاما على أمل الرومان ، فعادت فلول الجيش إلى مصر بعد أن مات أكثرهم . وهذه الحملة هى أول وآخر حملة حربية ذات أهمية حاولت فيها أوروبا أن تستولى على جزيرة العرب .

٥ — اليهودية والمسيحية :

هناك فى اليمن جالية يهودية تعيش فى جميع أنحاء البلاد ، ويقدر البعض عدد اليهود بسبعين ألفا ، يقيم منهم فى صنعاء نحو سبعة آلاف ، وأعتقد أن هذا الرقم مبالغ فيه ، ولا يمكن أن يزيد عدد اليهود عن خمسة وأربعين ألفا فى اليمن كلها ، وهم لا يختلفون فى مظهرهم العام عن باقى السكان ، اللهم إلا فى بعض مظاهر ، منها ترك الرجال للدوابتين على جانبي الرأس ، ولبسهم

طاقة سوداء فوق رؤوسهم ، ويقول اليهود إنهم أتوا إلى اليمن من فلسطين في القرن الأول بعد الميلاد بعد تحطيم معبد أورشليم ، ولكن أكثر المؤرخين يميلون إلى عدم الأخذ بهذا الرأي ، ويعتقدون أن الدين اليهودي وصل إلى اليمن واعتنقه بعض اليمنيين قبل هذا التاريخ بوضع مئات من السنين . وقد كان المينيون والسبثيون يعبدون الآلهة المختلفة ، ويرمزون لبعضها بالتماثيل كما لاقت عبادة الكواكب إقبالا كبيرا منهم ، وكان بعض هذه الآلهة محلياً أما البعض الآخر فقد جاء إلى اليمن من غيرها من البلاد وخاصة بابل . وعلى أى حال فقد انتشرت اليهودية انتشارا كبيرا في جنوب الجزيرة ، وكان أهم أوقات ازدهارها في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، كما أن بعض ملوك اليمن الحيريين اعتنق الدين اليهودي وأخذ في اضطهاد غير اليهود وخاصة المسيحيين .

وبالرغم من أنه لا يوجد مسيحي واحد بين اليمنيين الآن فإننا نعرف أنه جاء وقت على تلك البلاد كانت الكنائس منتشرة في أنحاء البلاد المختلفة ، وكانت بلاد نجران هي أول مناطق اليمن التي رحبت بالدين الجديد .

ورأى اليهود في المسيحية خطراً عليهم ، وحدثت مذبحه الأخدود في نجران التي قتل فيها أكثر مسيحيي تلك البلاد ، وكانت السبب الذي تذرعه به ملوك يزنطة ليطلبوا من حليفهم ملك الحبشة أن يفرز اليمن ليشأ للمسيحيين وكان ذلك في أوائل القرن السادس الميلادي .

ففرز الأقباش بلاد اليمن ، وبنوا كنائس كثيرة أهمها «القليس» في صنعاء التي زخرفها أبرهة إلى أقصى حد ووضع فيها التماثيل ورسم فيها صوراً مذهبة ، وأراد أن يجعل من صنعاء مركزاً تجارياً وثقافياً تأتي إليه القبايل بدلا من مكة وكمبها في الحجاز ، وليكون في ذلك ما يحب الناس في قبول المسيحية ، ولكن حدث بعد ذلك ما أثار أبرهة ، فسار إلى مكة ليهدم الكعبة ، ولكنه عاد مدحورا إلى اليمن .

٦ - الاسلام :

وبينا كانت الجزيرة العربية في هذه الحالة غير المستقرة ، أراد الله أن يظهر في مكة دين جديد قضى على ما هناك من خلاقات وحقق معجزة اتحاد سكانها ، ثم خرجت الجيوش العربية لتقضى على جيوش الفرس والروم .

وكان لليمن دور هام في نشر دعوة الاسلام ، فإن قبيلتي الأوس والخزرج اللتين ناصرتا النبي الكريم يمينتان ، هاجرتا من الجنوب واستقرتا في المدينة على الطريق التجاري بين عدن وغزة ، كما أن دعوة الاسلام لقيت النجاح الكامل بين قبائل اليمن ، فلم يسلموا بحسب

بل كانوا أول المستجيبين لدعوة رسول الله إلى الجهاد . فخرجوا من بلادهم لنشر الدعوة ، وفتحوا الأمصار ونشروا الإسلام ، وكانوا بحكم مدينتهم أقدر من سكان الحجاز ونجد على الحياة في البلاد التي خضعت لنفوذ الإسلام . فكان جيش عمرو بن العاص الذي فتح به مصر من اليمن كله ، كما أن الجيوش التي سارت إلى شمال أفريقيا كان أكثرها من القبائل القحطانية ، وهذا هو السبب في التشابه المحسوس بين عادات بعض سكان تونس والجزائر ومراكش وبعض الواحات في الصحراء الكبرى وعادات بعض سكان القبائل اليمنية وخاصة قبائل المشرق .

وأهل اليمن أذكاء ويستطيعون تكيف حياتهم في أي محيط جديد ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى امتزجوا بسكان مختلف الأمصار ، وتعلموا منهم أشياء كثيرة يجعلونها ، كما علموهم أيضا بعض ما يعرفونه من بقايا مدينتهم السابقة ، فكانوا من أهم بناة الصرح العظيم الذي عرفه العالم باسم الحضارة الإسلامية .

٧ — بلاد اليمن في العصر الإسلامي :

لم تلبث بلاد اليمن إلا قليلا حتى بدأت الخلافات المذهبية تحدث أثرا كبيرا في وحدتها وأمنها ، ولكن رغم ذلك تمتعت البلاد في بضع فترات بازدهار كبير إذا لم يشمل اليمن كلها فإنه كان يشمل بعض مناطقها ، وخاصة اليمن السعيدة (لواء آب) ولواء تعز وزبيد وذمار وصنماء . وظهرت دول كثيرة ترك بعضها ثروة هامة من العمارة وخاصة في بناء الجوامع مثل الدولة الرسولية ، كما تابع اليمنيون في العصر الإسلامي سياسة أسلافهم في العناية باستغلال مياه الأمطار والسيول ، وذلك ببناء السدود والخزانات والصهاريج لأن بلادهم تكاد تكون خلوا من الأنهار .

وظلت اليمن مقطعة الأوصال مقسمة إلى دويلات ، ساعد على وجودها كثرة المذاهب الدينية ، فهناك مثلا الشوافع في بلاد تهامة وفي لواء آب وفي بلاد المشرق ، وهناك الزيدية أتباع الإمام زيد بن علي الذين بقيت لهم تقاليدهم الخاصة منذ ألف سنة ، ولهم إمامهم الخاص الذي لا يأترون بأمر غيره ، وهم يسكنون الجبال . وهناك أيضا بعض الشيعة الإسماعيلية . وفي وقت من الأوقات اشتد ساعد أصحاب مذهب الباطنية ويسمون المكارمة ، وكانوا إلى سنوات مضت يمارسون مذهبهم في بعض البلاد على مقربة من ذمار ، وفي بعض بلاد همدان ، ولم يقض على أعمالهم إلا جلالة الإمام يحيى رحمه الله .

ودانت اليمن لحكم الأتراك ، ولكن نفوذهم لم يتعد الشاطئ وأقليم آب وصنعاء وما حولها ، وبقي أكثر البلاد يحيا حياة القبائل كما عاش أجدادهم ، ورغم الثلاثمائة عام التي انصل فيها الأتراك باليمن ، فإنهم لم يستطيعوا توحيد البلاد ، بل على العكس تسببوا في تمزيق أوصالها ، ولم تخضع لحكومة واحدة إلا في عهد المرحوم الإمام يحيى بن حميد الدين ابتداء من عام ١٩٣٦ فقط وبعد جهاده أكثر من ثلاثين عاما وهو يعمل لهذا الغرض .

ولا شك أن بلاد اليمن تأخرت كثيرا عن غيرها من البلاد ، ولكن يجب أن نقرر حقيقة هامة ، وهي أن الصناع اليمنيين لم يفقدوا مقدراتهم ، بل ظلوا محتفظين بها ، كما أن علماء اليمن حافظوا على ما كان يصل إليهم من علوم ، فظلت جذوة الذكاء مشتعلة إلى اليوم .

٨ — المناطق الأثرية في اليمن :

إذا أردنا حصر بقايا الحضارة الإسلامية في اليمن وجدنا أن هناك نوعين أحدهما الجوامع وأهمها الجامع الكبير في صنعاء وجامع الجند على مقربة من تعز وبعض المساجد في تعز نفسها وخاصة الأشرفية ، كما نرى في آب وزبيد وذمار بعض جوامع أخرى ، ولكنها في مجموعها لا يمكن مقارنتها بجوامع القاهرة أو دمشق وغيرها من الحواضر الإسلامية . وثاني آثار الحضارة الإسلامية هي آلاف المخطوطات المبعثرة في اليمن وأهمها في مكتبة المنصور له جلالة الامام الراحل ، وفي مكتبة الجامع الكبير ، وهناك مئات من المجموعات الخاصة في جميع أنحاء البلاد ، وهي ثروة من العلم لا يوجد لها نظير في أي قطر إسلامي آخر .

ولم يبق في بلاد اليمن كل شيء من بقايا الكنائس المسيحية ظاهرا فوق الأرض . كما أنه لا توجد في اليمن كلها بيعة قديمة لها أهمية . وأقدم المخطوطات العبرية لدى اليهود لا يرجع تاريخه إلى أكثر من خمسمائة عام .

ويوجد في أنحاء اليمن بعض بقايا الحصون من العصور الوسطى ، كما توجد فيها أيضاً بعض الأعمال الهندسية لحسن استغلال المياه ، ولكن أهم آثار اليمن هي بقايا الحضارات المينية والسبئية والحيرية .

والحضارة المينية هي أقدم حضارات اليمن ، وكانت عاصمتهم في بلاد الجوف ، وما زال هناك الكثير من بقايا المدن القديمة وفيها آثار المعابد وعلى جدرانها وفي أبنائها النقوش ، وأهمها مدن معين والحزم والبيضاء والسوداء وكنا . وقد عثر الأهالي على الكثير من الأحجار

المكتوبة وعلى التماثيل ولوحات البرونز والحلى والعملات القديمة ، ووجدت طريقها إلى عدن ثم إلى بعض المتاحف الأوروبية والأمريكية .

وكانت عاصمة الحضارة السبئية في بلاد مأرب ، وما زالت خرائب العاصمة باقية إلى اليوم تنتظر يد العلم لتكشف عن وجهها القناع ، وخرائب هذه المدينة لا تقل في اتساعها عن أى عاصمة من عواصم العالم القديم ، وترى الكثير من الأعمدة والأحجار المنقوشة ملقى بين خرائبها ، كما ترى بعض جدران منازلها ومعابدها ظاهرة فوق الأرض . وحول خرائب مأرب ترى الكثير من المناطق الأثرية أهمها المعبد المعروف باسم محرم بلقيس والمعبد المعروف باسم الهامد ، كما يوجد على مسافة ثمانية كيلو مترات تقريباً غربى الخرائب بقايا سد مأرب الشهير ، وسنتحدث عنه بشئ من الإسهاب فيما بعد .

ومن أهم مراكز الحضارة السبئية مدينة صرواح وفيها بقايا المعابد ، كما نجد فيها أيضاً الكثير من النقوش الهامة .

أما تلك الحضارات وأقربها عهداً إلينا فهي الحضارة الحميرية ، وكانت في الجنوب ، وأهم بقاياها نجدها في مدينة ظفار على مقربة من مدينة يريم ، وفيها بقايا المعابد والمقابر ، ولكن قد تخرب أكثرها ، وسرق اللصوص أكثر ما فيها من نقوش أو أحجار مرسومة ، لأن ظفار واقعة في المنطقة التي كانت خاضعة لحكم الأتراك ، بينما بلاد مأرب وبلاد الجوف لم تخضع يوماً للحكم التركي ، ولم يجرؤ الناس على الذهاب إليها بكثرة خوفاً من سطوة القبائل التي تقيم هناك ، ولم يستطع جلالة الإمام الراحل أن يضمها إليه إلا حوالى عام ١٩٣٢ .

٩ - الرحالة الذين زاروا الآثار :

أخذ البدو منذ وقت طويل يبيعون ما يجدونه من الآثار إلى الذين يتجرون فيها في عدن وكان طبيعياً أن يسأل هؤلاء التجار عن البلاد التي أتت منها هذه الآثار ، فكانوا يحدثنهم عما في بلاد مأرب وبلاد الجوف من بقايا المدن القديمة . ولم يتيسر لأحد من الأجانب الوصول إلى تلك البلاد قبل الصيدلى الفرنسى « يوسف توماس أرنو » في عام ١٨٤٣ ، وقد لاقى أكبر الشقات وكان نجاحه محدوداً .

وفي عام ١٨٧٠ أرسلت وزارة المعارف الفرنسية المسالم « يوسف هاليفى » لنقل كل ما يستطيع نقله من نقوش في بلاد اليمن لنشره في معجم النقوش السامية ، فكان هاليفى أول وآخر أوربي استطاع أن يزور بلاد مأرب والجوف ، ولاشك أن هاليفى نجح في عمله ، وأدى

للعلم أجل الخدمات ، وقد ساعده في عمله أنه لبس ملابس اليهود واليمنيين ، وكان ينام في منازلهم أينما سار ويتخذ أدلاءه من بينهم .

وفي عام ١٨٨٢ بدأ ادوارد جلازر رحلاته إلى اليمن — وهو إسرائيلي الدين مثل هاليفي — ولكنه لم يستطع الذهاب إلى مأرب إلا في رحلته الثالثة إلى اليمن في عام ١٨٨٨ وكان يدعى أنه من الحجاج الأتراك ، وسمى نفسه باسم الحاج حسين ، ورغم حماية أشرف مأرب له ، وتعهدهم للحاكم التركي في صنعاء بسلامته فإن رجال قبيلة عبيدة كادوا يفتككون به لولا هروبه أثناء الليل من مأرب . ولم يذهب جلازر إلى بلاد الجوف ، ولهذا بقي ما نقله هاليفي من النقوش مصدرنا الرئيسي إلى اليوم رغم مرور ثمانية وسبعين عاماً .

ولم يجرؤ أحد بعد جلازر على المخاطرة بالذهاب إلى تلك البلاد ، وكان المرحوم الإمام يحيى يخشى على حياة ضيوفه ، فلم يسمح لأحد منهم بالسفر إلى تلك المناطق التي تعيش فيها قبائل لا تخضع لقانون ولا ترحح إلى رؤية شخص غريب ، ولم يسمح المرحوم الإمام يحيى لأحد بالسفر إلى مأرب إلا الأستاذ نزيه مؤيد العظم في عام ١٩٣٦ ، كما أنه سمح الأستاذ محمد توفيق بالسفر إلى الجوف وزيارة آثاره في عام ١٩٤٥ ، وكانت رحلة كل منهما برضاء جلالة الإمام ، وأرسل مع كل منهما الحراس اللازمين .

وفي شهر مايو عام ١٩٤٧ كان لي وفيير الحفظ بارتياح المناطق الأثرية في اليمن ، فزرت بلاد صرواح ومأرب ، كما ذهبت أيضاً إلى بلاد الجوف وزرت خرائبها كلها . وعدت ومعى مجموعة صور فوتوغرافية لآثار اليمن ، وما رأيته فيها من كتابات أو أحجار منقوشة ، كما تمكنت من نقل نقوش كثيرة أكثرها لم يره أحد من قبل لأنه خرج من مكانه في العامين الأخيرين فقط . وقد أضافت هذه الكتابات ثروة كبيرة إلى معلوماتنا عن تاريخ تلك البلاد ودبائنها القديمة . كما ألفت صور الأحجار المنقوشة كثيراً من الضوء على صلة الفن اليمني القديم بفنون البلاد الأخرى وخاصة الحضارة البابلية .

وكان الفضل أولاً وأخيراً في نجاح زيارتي لآثار اليمن إلى المغفور له جلالة الإمام يحيى الذي لم يكتف رحمه الله بتسهيل زيارتي لهذه المناطق ، بل أمر بأن أكون ضيفه أثناء إقامتي هناك وكان يشماني بطفه وعنايته فلن أكراه الغالية أطيب الشكر والعرفان بالجليل .

١٠ - سد مأرب :

ومن أهم ما عثرت بدراسته في هذه الرحلة موضوع سد مأرب فأثقت على مقربة منه يومين

نقلت أثناءها جميع ما فيه من نقوش كما أخذت أبعاد بقايا الأبنية التي فيه . وقد كان هذا السد يؤدي غرضين أولهما حجز المياه خلف وادي مأرب المتسع عند مكان يكاد يلتقي فيه جبلا بلق الأيمن والأيسر ، في نقطة تسمى الضيقة ، للانتفاع بالمياه مدة أطول من فترة مرور السيول ، وذلك بتصريفها من البوابات حسب الحاجة ، وثاني الغرضين رفع المياه خلف السد إلى علو خمسة أمتار على الأقل حتى يمكن رى أراضي الوادي المرتفعة . ولهذا الغرض بنوا في عرض السابلة عند الضيقة حائطا ضخما جعلوا فيه فتحتين لتصريف المياه إحداها إلى اليمين ، وكانت تخرج منها ترعة كبيرة لتروى الجنة اليمنى ، والأخرى وهي الأهم إلى اليسار ، فكانت تخرج منها ترعة كبيرة تسير نحو ١١٦٠ مترا ، ثم تصل إلى حوض كبير يخرج منه أربعة عشر مجرى للمياه في الاتجاهات المختلفة لرى الوادي المتسع .

وقد كان كل من الترعتين يروى عدة بلاد اندثرت الآن بعد تهدم السد ولم يبق في المنطقة إلا قرية صغيرة وهي قرية مأرب وتحتل ركنًا صغيرا بين الخرائب وتعتمد في زراعتها على الأمكن المنخفضة التي تستطيع أن ترويه مياه السابلة وتعتمد في شرب سكانها وماشيتها على الآبار ، أما مياه الأمطار فتذهب الآن سدى في الصحراء .

وهناك عدة خرائب لقرى كانت ترويهما الترععة اليمنى — وهي الباقية من الجنة اليمنى — وأهمها مدينة النحاس وخرابة مروث ومحرم بلقيس والمعابد ، وفيها كلها بقايا معابد وأبنية بالحجر . أما الترععة اليسرى فكانت لرى مدينة مأرب العظيمة وهي ملأى ببقايا المعابد المختلفة والقصور المبنية بالحجر وتظهر أعلى جدرانها من بين الأنقاض هي والأعمدة . ومن النقوش التي على مقربة من السد تعرف أن أول من فكر في إقامته هو الملك « سمعل بنوف » وأنم العمل ابنه « يشع أمر » اللذان عاشا في القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد تهدم السد عدة مرات وأصلحه الملوك المختلفون وهذا هو السبب في وجود أسماء ملوك عديدين في نقوش الأحجار التي أعادوا استعمالها في البناء . وكان آخر ترميم للسد هو الترميم الذي قام به الملك أبرهة الحبشي في النصف الأول من القرن السادس الميلادي وذكر تفصيل انتصاراته وترميمه للسد على لوحين كبيرين ما زالتا على مقربة من مكانهما الأصلي وإحداهما مؤرخة في عام ٥٤٢ والأخرى عام ٥٦٥ وأهم النصين يبدأ بقول أبرهة « بقوة وجبروت ورحمة الإله الرحيم ومسيحه والروح القدس نقشنا أنا أبرهة هذا النقش كغائب لملك الجازر عيس وذويان ملك سبأ وذويديان وحضر موت واليمن وأعراب الجبال وتهامة » ، ثم يتحدث النص بمد ذلك عن الثورة التي قامت بين القبائل في بلاد مأرب وذهابها لإخضاعها ثم عمله وهو هناك بأن سد

مأرب قد تصدع فأمر بإصلاحه وتم ذلك في أحد عشر شهرا وصرفت المخازن للمال الذين قاموا بهذا العمل ٥٠٨٠٦ كيسا من الدقيق و ٢٦٠٠٠٠ حمل من البلح و ٣٠٠٠٠ حمل وثور و ٢٠٧٠٠٠ رأس من الغنم وذلك عدا الحيوانات التي استعملها المال في النقل ، وذكر أبرهة في هذا النص أيضا مقاييس السد كما أشار إلى تفشى وباء الجدري في منطقة مأرب أثناء وجوده هناك .

وكان هذا الترميم هو آخر ترميم لسد مأرب ، إذ أصابه الخراب بعد ذلك بقليل فحدث سيل العرم الشهير ومنذ ذلك اليوم اندثرت جميع البلاد الزاهرة التي كانت في هذه المنطقة .
هاتم :

إن فضل اليمن على الحضارة الإسلامية في غير حاجة إلى تذكر أو تعريف ، فقد كان لليمنيين الفضل الأكبر في نقل حضارتهم وحضارات الأمم المختلفة التي نقلت الإسلام من مكان إلى مكان ، ونشروا الكثير من فروع العلم والمهارة وخاصة إقامة السدود في جهات مختلفة في آسيا وفي شمال أفريقيا وفي أسبانيا .

ولكننا نعرف أيضا أن بلاد اليمن لعبت منذ فجر التاريخ دوراً هاماً في نشر التجارة بين بلاد الشرق القديم واستقر المهاجرون اليمنيون في شمال الجزيرة العربية فكان منهم البابليون الذين غلبوا السوميريين على أمرهم في بلاد ما بين النهرين في الألف الرابع قبل الميلاد . وكان منهم أيضا القبائل التي عبرت البحر الأحمر إلى الشاطئ الأفريقي وصنعت جزءاً كبيراً من تلك البلاد بحضارتها ، وأكبر الظن أن أحفاد بعض هذه القبائل وصلوا إلى وادي النيل من الجنوب ومن الشرق وذلك في فجر التاريخ أيضا .

إن مناطق الآثار في بلاد اليمن لم تمتد إليها يد الغلاء بعد ، وكل ما وصل إلينا من مسموعات لم يعد ترجمة الأحجار التي أتت من سطح الأبنية وبعضها يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد ولكن بعض هذه الأكوام والأنقاض يرتفع ارتفاعاً كبيراً ، وكلنا نعلم الحفائر في عمله وصل إلى عصور أبعد في التاريخ لأن هذه المدن بنيت على أنقاض مدن أقدم منها .

إن هناك فجوات كثيرة في التاريخ القديم للشرق بل لا نبالغ إذا قلنا إن هناك حلقات مفقودة في أصل تاريخ حضارة بعض بلاد الشرق القديم وهناك أمل كبير في أن الأبحاث المقبلة في جنوبي الجزيرة العربية ستتملأ هذه الفجوات وتصل بين هذه الحلقات بل وستلحق ضوءاً كبيراً على فضل الجنس السامي والدور العظيم الذي لعبته الجزيرة العربية في حضارة العالم قبل دورها العظيم الذي قامت به عندما أثبتت منها نور الإسلام .

أحمد قنوري